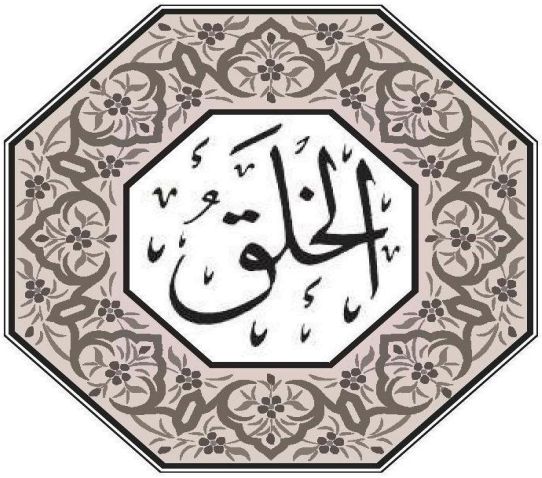

قصّة الخلق

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة الكلمة © 2020

www.alanbiya.org

مدخل إلى قصّة الخلق

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [سورة ق: 38]

لقد اختار الله أن يخبر عن الكون منذ بدايته وحتى نهايته من خلال الوحي الذي أنزله على أنبيائه (عليهم السلام). ووردت قصّة الخلق في البداية في التوراة ثمّ جاءت في الكتب السماويّة التي تلتها، واستندت هذه القصة في تفاصيلها إلى ما جاء في التوراة. وتجدر الإشارة إلى أن الله أنزل وحيا وجّهه إلى بني يعقوب انطلق فيه من المعتقدات والمفاهيم السائدة في عصرهم ومحيطهم الذي عاشوا فيه. لقد فهم بنو يعقوب الله ربّهم وصفاته الحميدة اعتمادا على ما آمن به النّاس في ذلك المحيط. وكانت لديهم معتقدات كثيرة مشتركة مع غيرهم من الأمم في العالم القديم. ولم يخطر ببالهم أن يشكّكوا في معتقداتهم حيث لم توجد معتقدات بديلة في عصرهم.

وهذا لا يعني أنّ بني يعقوب قد قلّدوا أفكار الآخرين أو تبّنوها وإنّما كانت لديهم كثير من المعتقدات المنتشرة في العالم في عصرهم. وأكّد الله بعض هذه المعتقدات، وترك البعض الآخر دون تعليق، بينما عالج معتقدات أخرى منتقلا بالنّاس خطوة تلو الأخرى بعيدا عن المفاهيم المشوّهة للذات الإلهية ومتّجها إلى أفكار أسمى.

ومن بين هذه المعتقدات عند بني يعقوب اعتقادهم المتعلّق بنشأة العالم وشرح أسباب الأحداث الطّبيعية فيه. وفي سفر التكوين الذي هو فاتحة التوراة جاء الوحي ليخاطب الناس بمفاهيمهم ومعتقدات مألوفة لديهم حتى يعالج الأسئلة الأولى التي طرحها القدامى، فمثلا لم يدرك بنو يعقوب أنّ النّجوم هي في الحقيقة مثل الشمس وأنّ الأرض هي كروية الشكل تدور في مدارها في الفضاء وأنّ الشمس تبعد عن الأرض أكثر من القمر. كما آمنوا أنّ السّماء

شيء جامد لا يتكوّن من غازات بل اعتقدوا أنّها عبارة عن حجاب أو سقف يتوارى خلفها الله والكائنات الغيبية، وتصوّروا أيضا أنّ السّماء سد منيع يمنع الأمطار من الهطول على الأرض، ولكن الله ترك هذه التصوّرات حتى يكتشف العلماء حقيقتها على مرّ العصور.

ويرى بعض المفسّرين المعاصرين أنّه من الضروري تفسير كتاب التكوين للناس وكأنّه يتضمّن محتويات الاكتشافات العلمية الحديثة أو ما يستند عليها. ولكن هذا المنهج الذي اتّبعه هؤلاء المفسّرون يجعل من التوراة تحتوي على أشياء دخيلة عليها، لأنّ التوراة في الأصل خاطبت أناسا عاشوا في ذلك العصر لا في هذا العصر. وهناك خطر في هذا المنهج التفسيري، حيث تتطوّر نظريات العلوم الطبيعيّة وتتغيّر باستمرار شأن مفاهيمها للكون. فإذا افترضنا مثلا أنّ الله أنزل الوحي بالعودة إلى مفاهيم العلوم الطبيعيّة، فهذا يعني أنّ الوحي مرتبط بعلم مرحلة معيّنة من التاريخ، وبالتالي لا يُفهم الوحي إلا لمن عاصر تلك الفترة. أمّا بالنسبة إلى من سبق تلك الفترة، فيصعب عليه فهم محتوى الوحي، بينما يبدو الوحي قديما ومثيرا للاستهزاء لكلّ من لحق تلك الفترة.

أمّا بخصوص القرّاء المعاصرين فإنّ إقبالهم على الكتاب المقدّس يرتبط عادة بطرحهم لأسئلة كثيرة. ولكنّ نص التوراة لا نتوقّع منه أن يحمل إجابات على أسئلتهم المعاصرة، ولا يمكن إخضاعه لمفاهيم القراء المعاصرين لأنّ الله أنزل الوحي في التوراة لأسباب تتعلّق بالناس في ذلك العصر. وهذا لا ينفي أنّ التوراة لا تحظى بأهمية فائقة لدينا بل علينا أن نفهمها كنص قديم يخاطب القدامى الّذين يختلفون عنّا في طرق متعدّدة من تفاصيل حياتهم. إنّ هذا هو المقصد الأساسي الذي أراده الله من خلال التوراة، لذلك علينا فهمها على هذا الأساس ولا يجب علينا أن نوظّف هذا النص لخدمة أهداف غريبة عنه، سواء كانت ثقافية أو حضارية أو سياسية.

أمّا بالنسبة إلى قرّاء التوراة القدامى، فمن أهمّ المسائل الملحّة لديهم هي هدف خلق الكون لا أصله المادّي. ومع أنّ كثيرا من قرّاء التوراة يحاولون فهم قصّة الخلق على أنّها قصّة تروي أصل الكون المادّي، يرى العديد من الباحثين في التوراة اليوم أنّه من المستحسن أن ننظر إلى قصّة الخلق في

سفر التكوين باعتبارها وصفا لنشأة وظائف الكون. ويرى هؤلاء الباحثون في هذه القصة أنّها تصف تدشين الكون كبيت لعبادة الله على مدى سبعة أيام. ويخصّص الله عناصر الكون المختلفة ووظائفها لمصلحة البشريّة وغيرها من المخلوقات ليصبح الكون كلّه في النهاية لتمجيد الله وتسبيحه.[1] وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54].

---

(١) انظر جون ولتن، العالم الضائع للفصل الأول من سفر التكوين. Walton, John. The Lost World of Genesis One: Ancient Cosmology and the Origins Debate. Downers Grove, IL: Intervarsity Press. 2009.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة الخلق

خلق السّماوات والأرض[٢]

في البدء، عندما خلق الله السّماوات والأرض، كانت الأرض بلا شكل تعمّها الفوضى، ويهيمن عليها الظلام وتغطّي المياه أعماقها. وسرت نفحات روح الله على وجه المياه. وبكلمة من الله تعالى أمر النّور "كن" فيكون.[٣] ورضي الله عن هذا النّور وفصل بينه وبين الظّلام. وسمّى النّور نهارًا والظّلام ليلا. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الأوّل من الخلق.[٤]

وفي اليوم الثّاني، وبكلمة منه، خلق الله تعالى السقف المرفوع[٥] ووزّع المياه فوقه وتحته في أماكنها المناسبة. ثمّ أحدث الله فراغا تحت هذا السقف المرفوع وسمّاه جوًّا. وختم الله هذا اليوم بهبوط اللّيل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الثّاني من الخلق.

وفي اليوم الثّالث أمر الله المياه أن تتجمّع في مكان واحد لتظهر اليابسة. وسمّى اليابسة أرضًا وسمّى المياه بحارًا. ورضي الله عن الأرض والبحار. وبكلمة منه تعالى خلق في الأرض كلّ أنواع النبات وأشجار الفاكهة في هذه

---

(٢) استنادا إلى كتاب التكوين 1: 1-31.

(٣) يذكر الإنجيل الشريف أنّ كلمة الله الأزلية صارت إنسانا، والمقصود بها السيد المسيح. ويؤكد الطبري هذه الحقيقة في تفسيره للآية 45 من سورة آل عمران، ويقتبس من ابن عبّاس الذي أكّد أيضا هذه الحقيقة.

(٤) انظر سورة فاطر: 13.

(٥) انظر سورة الطور: 5 وسورة الأنبياء: 32.

الدّنيا، والنبات الذي يحمل بذورًا على أنواعه، وكلّ شجر يحمل ثمارًا ذات بذورٌ لتأتي بمثلها وتتكاثر. ورضي الله عن هذه المخلوقات أيضًا. وختم سبحانه وتعالى هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الثّالث من الخلق.

وفي اليوم الرّابع، وبكلمة من الله، ظهرت الأفلاك في قبّة السّماء لتضيء الأرض وتميّز بين ضياء النّهار وظلام الليل، وقدّرها منازِل لحساب المواسم والأعياد والأيّام والسنين وضبط الليل والنّهار. وتمّ هذا كلّه بأمر منه تعالى. وسخّر الله من الأفلاك، الشمس لضبط النّهار والقمر[٦] لضبط اللّيل ومعهما أضاف النّجوم.[٧] ورضي سبحانه وتعالى عن جميع هذه المخلوقات. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الرّابع من الخلق.

وفي اليوم الخامس خلق الله بكلمة منه السّمك وكل أنواع الحيوانات التي تعيش في الماء، من صغيرها إلى عظيمها، فملأت البحار. وخلق الله الطّيور بأنواعها لتملأ السّماء، ورضي تعالى عن هذه المخلوقات أيضًا، وباركها وأمرها أن تتكاثر. وأمر سبحانه وتعالى السّمك أن يملأ البحار، والطّيور أن تملأ الجوّ. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الخامس من الخلق.

وفي اليوم السّادس خلق الله بكلمة منه كلّ أنواع الحيوانات التي تعيش على الأرض، من بهائم ووحوش وزواحف وحشرات، وتمّ هذا بأمر منه تعالى. ورضي الله عن جميع هذه المخلوقات.

وفي الأخير خلق الله الإنسان وقال: "ها إنّنا نخلق الإنسان ليكون ظِلّنا في الأرض،[٨] ذكرًا وأنثى نخلقه". وأعطى الله الإنسان سلطة على السّمك

---

(٦) نلاحظ أنّ النص في اللغة الأصلية يتجنّب ذكر اسم الشمس واسم القمر ويطلق عليهما "النور الأكبر" و"النور الأصغر"، وربّما يعود السبب لكون الاسمين يرتبطان بإلهَي الشمس والقمر. وهذه الإشارة تدلّ على أنّ الشمس والقمر هما نورين لا أكثر خلقهما الله.

(٧) انظر سورة العنكبوت: 61، وسورة الإسراء: 12.

(٨) جاء في ترجمات أخرى لهذه القصّة أنّ الله خلق الإنسان "على صورته"، ولكنّ المفسّرين يجمعون على أنّ هذا التعبير مجازي ويشير إلى السلطة والحكم. وفي العالم القديم اعتبر الملوك أنفسهم ظلّ الله في الأرض،

والطّير وكلّ الحيوانات. نعم، جعله مسؤولا على الأرض وعلى كلّ من فيها. وهكذا أصبح الإنسان خليفة الله في الأرض. وبارك الله الإنسان وأمره أن يتكاثر ويملأ الأرض.[٩] وأخبر الله الإنسان أنّه قد سخّر له هذه الأرض وجعلها تحت تصرّفه بما فيها من أسماك البحار وطيور السّماء وكلّ الحيوانات التي تدبّ على الأرض. وأخبره تعالى: "لقد وهبتك جميع النّباتات التي تحمل بُذورًا على سطح الأرض، وكل الأشجار التي تحمل فاكهة، لتكون لك طعامًا.[١] ووهبتُ العشب الأخضر طعامًا للحيوانات والطّيور". ثمّ عاين الله كلّ مخلوقات الأرض من إنسان وحيوان ونبات ورضي عن خلقه جميعًا، لأنّ كلّ ما خلقه تمّ في أحسن تقويم.[٢] وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم السّادس من الخلق.[٣]

خاتم أيّام الخلق[٤]

وهكذا خلق الله السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام.[٥] وفي اليوم السّابع توقّف الله عن عمل الخلق كلّه، ثمّ استوى على العرش[٦]. وهكذا

بينما أوحى الله تعالى أنّ هذه الميزة خصّ بها كلّ البشرية، ابتداء من آدم (عليه السلام). وبذلك تكون البشرية جمعاء خليفة الله في الأرض كما جاء في سورة البقرة: 30، وسورة الأنعام: 165.

[٩] انظر سورة الروم: 20.

[١] لم يسمح الله للبشر بأكل اللحوم إلا بعد الطوفان، شرط أن يأكلوه خال من الدماء.

[٢] انظر سورة السجدة: 7.

[٣] انظر سورة غافر: 64.

[٤] استنادا إلى كتاب التكوين 2:1-4.

[٥] اختلف الدارسون حول تحديد نوعية زمن الأيام الستّة. فمنهم من رأى أنّ زمن هذه الأيام يُقاس بالزمن الميقاتي الذي نعرفه، وهناك من رأى أن هذه الأيام رمزية وتشير إلى فترات طويلة من الزمن تفوق كثيرا الزمن الذي نعرفه. بينما رأى آخرون أنّ هذه الأيام ليست أيّاما فيها خلق الله كلّ شيء من عدم، بل هي فترة حدّد فيها الله كلّ شيء في الكون إلى أن يكون بمثابة بيت مقدّس لتعظيمه وعبادته تعالى.

[٦] عبارة "استوى" هنا، تعوّض بمصطلح "استراح" في ترجمات أخرى، لارتباط المصطلح الأصلي بمعنى مجازي والمقصود به الاستقرار والسكينة وبداية الحكم، كما نرى في كتاب النبي صموئيل الثاني، 7: 1، حيث ترد إشارة إلى أن الله "أراح داود" من أعدائه وكيف استقرّ (عليه السلام) على العرش. وهنا سكن الله ليبدأ حكمه في الكون، بعد أن دبّر كل العناصر فيه ونظّمها من أجل خدمته وتمجيده. انظر مثلا سورة الفرقان: 59، وسورة الأعراف: 54.

صار اليوم السّابع يومًا مميّزًا عند الله ومقدّسًا، إذ فيه أتمّ عمليّة الخلق.
وهذه هي مراحل خلق الكون من سماوات وأرض وما بينهما.